

في معركة الإصلاح الاجتماعي

إجرام الأحداث

للاستاذ فتح الله المرصفي

مفتش التعليم بمصلحة السجون

لمحة تاريخية :

معاملة الأحداث في العصور الأولى :

يحدثنا تاريخ الإصلاح الاجتماعي في غير بلادنا ، عن معاملة الأحداث المجرمين ، منذ للعصور الأولى ، بأنها ليست بأقل من معاملة المجرم البالغ في شيء ، من حيث استعمال وسائل النعم والانتقام . فنذ سنة ١٨٠١ كان الطفل في بلاد الانجليز يعدم شنقا وهو في سن العاشرة إذا ارتكب جريمة سرقة ملعة من مسكن . وفي مايو سنة ١٨٢٣ ، حدث أن اتهم غلام في سن التاسعة وحوكم أمام ديثة المحكمة بتهمة أنه دخل مسكنا وسرق بنسين ناشين من دولاب ، حيث قضى عليه الحكم بالإعدام . ومن المأثور قديما عن حادثة تاريخية في البلاد التركية ، سنة ١٥٩٧ ، من نهاية القرن السادس عشر ، عن المرحوم مراد باشا القاوجي ، أي صاحب البئر وقد استدعاه السلطان من حرب المجر ، وكان عمره ٩٠ سنة وقلده الصدارة العظمى ، وناط به تطهير الأناضول من الأشقياء ، وكان في مهمته هذه يحفر حفرة بقرب خيمته يعدم فيها الأشقياء . وفي يوم لمح شقيا يردف على حصانه طفلا ، فأمر بإحضار الطفل ، وعلم من الصبي ، أن الفقر هو الذي رمى به وبوالده في أحضان الأشقياء ، ولكن مراد باشا هنز رأسه ، وأمر بتسليم انصبي للجلاد ، ولكن الجلادين استغفوا عن أداء هذه المأمورية استنكارا لإعدام صبي معدم ، فما كان من مراد باشا ، إلا أنه أخذ الغلام إلى حافة الحفرة وخنقه بيده وألقاه فيها ، ثم عاد إلى مجلسه وهو يقول : — " إن منع الفساد ورفع الشرور لا يكون بالرحمة ، بل بالبتر والازالة " .

سجن الأطفال :

أخذ القوم فيا بعد من أمم العالم بسجن الأطفال مع كبار المجرمين ، جنبا إلى جنب ، في السجون العمومية ، واستمرت هذه الحال حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وإلى القرن

التاسع عشر . وقد كانت مصر والبلاد الأوربية وغيرها في هذا سواسية ، حتى أن كل من زار سجننا من المسجون المصرية سنة ١٨٩٤ ، كان يقع نظره على عدد من الأطفال ، ليس بالقليل .

الاحصاء :

وانه بلديربنا في هذا المقام ، ونحن في سنة ١٩٤٢ من القرن العشرين ، أن نحصر مئات الأطفال وعشرات الألوف ، من نزلء السجون ، أو من يزجون فيها سـنويا بين عناة الاجرام ، فضلا عن يرسلون إلى الاصلاحيات ، لا لذنوب جنود سوى ما اقرّفوه من اثم كان سببا في الحكم عليهم . وانه رغم ما يقضى به قانون العقوبات المعدل في سنة ١٩٣٧ ، بعدم سجن الأحداث من سن السابعة ، حتى الخامسة عشرة ، فإنه لا يزال يزج في السجون العمومية ، المئات من الأطفال . ولست أريد أن أنقل على القراء بما أتت به الاحصاءات العامة للدولة ، من حيث إحصاء سجن الأحداث ، أو ما ذيلت به التقارير السنوية لمصلحة السجون من إحصاءات ، بيد أني أضع أمام عيونكم مجملا خاطئا لأرقام الأحداث في السجون .

سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٣٢ ، مجموع الأحداث ٤٥٦٧٥ منهم ٦٤٨ بنتا .

المسجونون في السجون ، والإصلاحيات ، ومن نفذت فيهم عقوبة الجلد :

(١) ٢٥٩٦١ سجنوا منهم ٤٥٠ بنتا .

(٢) ٢٣١٨ ألقوا بالإصلاحيات منهم ١٩٤ بنتا .

(٣) ١٧٣٩٦ جلدوا منهم ٤ بنات .

وبمقارنة هذه الأرقام لخمس سنوات خات ، من سنة ١٩٢١ - ١٩٢٥ يتبين لنا أن هناك زيادة لا تقل عن ٣٥٦١٨ منهم ٤١٥ بنتا .

وعن إحصاء المسجونين من هؤلاء الأحداث من السنتين ١٩٣٩ ، ١٩٤٠

وجد ٤٤٠٧ منهم ٤١٦٠ غلاما ، ٢٤٧ بنتا في سنة ١٩٣٩ ؛

ووجد ٢٢٠٨ « ١٦٨٨ » « ٥٢٠٦ » ١٩٤٠

يضاف إلى هؤلاء ٥٢١ سجنوا في السجون المركزية : ٤٧١ غلاما و ٥٠ بنتا .

هذا عدا من ألق من الإصلاحيات ، في غضون هاتين السنتين ١٩٣٩ ، ١٩٤٠

هؤلاء الأحداث جميعا في سن التعليم الأولى ، أي من سن ٧ إلى ١٥ سنة .

وفوق هذا ، فإن في إحصاء المسجونين من الشبان والشابات من السجون العمومية ، ومن هم في سن (١٦ - ٢١) سنة ، ما يلفت النظر إلى أن هذه الحلقة من الإصلاح : حلقة إصلاح الشبان والشابات - في مصر مفقودة ، رغم ما طرأ على الشبان من خطورة في محيط الجريمة والمحرمين . وأذكر أن مصلحة السجون ، قامت بإحصاء عام طرأ على الشبان في سنة ١٩٢٦ ، فتبين أن مجموعهم لم يتخط ٢٦٠٠ شاب ، غير أن تقارير السجون السنوية وما أتت عليه من إحصاء لسنوات ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ ، ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ يدل دلالة واضحة على أن تعداد هؤلاء الشبان في السجون يتزايد يوماً بعد يوم ، وسنة بعد أخرى .

وقد كان إحصاء سنة ١٩٣٩ : ١٥١٥٨ شاباً وشابة منهم ٨٠٨ فتيات .

وسنة ١٩٤٠ : ١٨١٢٩ « ٧٤٦ فتاة .

على أن هذا الأمر - وأقصد به حبس الأطفال والشبان في السجون - قد فرغ من بحثه العالم المتمددين ، بل أصبحت السجون فيه أشبه ما تكون بماهد منها إلى حصون أو معازل .

الطفل الشريد :

- أما النواحي العامة لتشرذم الأطفال بيننا ، فترجع في الغالب إلى عوامل أهمها :
- (١) عدم استقرار سياسة التعليم الإلزامي ، مع الشدة الزامة في معاملة الأحداث من أصحاب المصانع الأهلية .
 - (٢) عدم وجود تشريع كاف لحماية الطفل ورعايته .
 - (٣) عدم توثيق الروابط الزوجية ، مما يؤدي إلى الطلاق وسهولة الزواج بين الطبقات الفقيرة على وجه خاص .
 - (٤) هجرة الكثيرين من سكان الريف إلى المدن ، لكسب العيش ، وإهمال الأطفال بل وتسريحهم .
 - (٥) إكراه الأطفال على الخدمة في المنازل (صغار الخدم) مع الفسوة في معامتهم ، وهذه مشكلة قائمة بذاتها .

الأطفال الشواذ :

إن بيننا من الأطفال الشواذ ، ومن بينهم العمل وصغار المجرمين ، ما يربو على ١٥٠٠٠ طفل وقد عني الدكتور كلبايد الخبير المعنى ببحث وتتمير حالة التعليم في جميع مراحلها في مدارسنا ، في سنة ١٩٢٨ حيث انتدبه وزارة المعارف لهذا الغرض . وقد انتهى إلى

أن مستوى الذكاء تخطى الحدود المألوفة ، وقد عزا ذلك إلى عوامل أهمها : عدم وجود فرق خاصة للأطفال المتأخرين والشواذ الذين يتابعون دروسهم مع الأطفال العاديين جنبا بلجنب ، وإلى أن قول : ” وإذا ضوعف الشذوذ بفساد في الأخلاق ، كثرعه إلى السرقة والإجرام ، فمن المحتم حجز المصابين بهذه الآفات في بيوت خاصة بإصلاح الأخلاق ، أى معاهد الإصلاح “. ولعل أن يأتي اليوم القريب ، ليلقى الطفل الشاذ في مصر من العناية ما لقيه أمثله من ضروب الإصلاح ، في غير بلادنا ، ومن زمن بعيد - وما نرجو أن يكون لهذا أثر في كفاح الجريمة والوقاية منها ، وبين طائفة بيننا ، كان إهمالهم ولا يزال أشد خطرا علينا وعلى أنفسهم .

إجرام الأحداث :

أما عن الجريمة عند الأحداث ، فإن من يتابع حياة العناة من المجرمين ، وتحليل شخصياتهم يتحقق أنهم كانوا بالأمس أطفالا هملا ومجرمين صفارا ، كما أيد الإحصاء بكل وضوح أن رجل الإجرام سلاثة من الطفولة ، فغلام اليوم المتشرد الشريد الذى يعبت بالأمن والفار من وجه البوليس ، هو ذلك المجرم المتيد ابن الغد .

حقا إن السرقة قد تجعل من الطفل - بالزمن - لصا خطيرا . وإنى اعتقد أن ما يأتية هؤلاء الأطفال من الجرائم في حدود القانون يوشك ألا يكون له أثر ، إذا ما أخذوا في صباهم تربيتهم عقلا وخصيا وجثمانيا التربية الحقة ، ولكن هذا أدعى إلى تكوينهم ، إصلاح حالهم ، فيقتدرون أنفسهم ، وتأمين البلاد شرهم . وفي هذا يقول الدكتور سرل بيرت في بحث مستفيض عن الأطفال والجريمة في مؤلفه : (المجرم الصغير) : ” إنه لمن السهل بل من المأمول جدا ، كما أنه من الواجب المبادرة والإسراع إلى الإصلاح أو على الأقل ، العمل على إصلاح المجرم الصغير عند نشأته “ .

طوائف الأحداث :

هدتنا الخبرة والبحث إلى أن أخص طوائف الأحداث بيننا ثلاث :

أولا - فريق الأحداث المفطورين على النباهة والذكاء ، الذين يستخدمون مواهبهم هذه في الخداع والمكر إذ يلجئون إلى الغش والنشل والسرقة والنصب والاحتيال . ولهم من ذكائهم ما يمهدهم سبل الافلات والهرب . هؤلاء يجب أن نعى بأمر علاجهم ، بما يتناسب وحالتهم ، حتى نهذب فيهم غمائر حب النفس والأثرة والشره ، وما يلازمها ، وليستبدلوا بها الفضائل ، وهم إن عني بشأنهم ، استطاعنا أن نجعل منهم مواطنين ينفعون أنفسهم والمجتمع .

ثانياً - طوائف الأغنياء من الأحداث ، فهم وإن كانوا أقل خطراً من الفئة السابقة ، وألسس قيادة ، إلا أن اختلاطهم بغيرهم من النباه يؤثر فيهم تأثيراً لا يجدى معه تقويم أو علاج .

ثالثاً - ضعاف العقول من الأحداث : وهؤلاء وإن كانت حياتهم عديمة الفائدة ، إلا أن خطرهم أشد وأصوأ مغبة ، لا على أنفسهم ، بل وعلى المجتمع ، وهذه الطائفة أولى من سواها بالحق بمعاملة لا تقل في نظامها ، عن أن تكون مستوصفات ، أكثر من أن تكون معاهد تأديبية .

أثر العودة الى الاجرام بين الأحداث :

إن أخص العوامل المشجعة على التماضى في الجريمة بين الأحداث والشباب على السواء : سوابق الأحداث : وما يقصد بها : العودة إلى الأجرام ، تبدأ هذه الخاتمة :

(١) من سوء الخلق الى (٢) القبض على الطفل الى (٣) اتهامه ومحاكمته (٤) فحسه ، سواء أكان في السجن أم في إحدى دور الإصلاحات .

(١) ومن المقرر أن غالبية المجرمين المعتادى الاجرام من بدؤوا حياتهم الاجرامية ، قبل سن العشرين . رجعت إلى فحص حالة ١٠٥٠ مجرماً ، ممن كانوا موجودين بإصلاحية الرجال عام ١٩٣٩ فكان من بينهم ٢٣٧ مجرماً ؛ سبق أن كانوا بإصلاحات الأحداث ، أى أنه حوالى ٢٢٪ .

(ب) كما أن هناك أحداثاً تقدموا الى المحاكمة بتهمة السرقة وغيرها من الجرائم ، وكثيراً ما تصدر ضدهم أحكام الوضع بالإصلاحية . ولم ينفذ عليهم الحكم مطلقاً ، لعدم وجود مجال خالية بالإصلاحات ، وقرئياً صدرت أحكام ضد ٤٦٧ غلاماً ، من محكمة أحداث الاسكندرية ، ولم يتيسر وضعهم بالإصلاحات . إذ أنه لم توجد مجال خالية إذ ذلك ، على أن هذا خلافاً لما يصدر من أحكام ضد الأحداث ، من محكمة أحداث القاهرة ، وغيرها من محاكم القطر ، ولم يتيسر تنفيذها لعدم وجود مجال خالية في دور الإصلاحات .

فإذا أغفلنا بالإمس وتهاونا في إطلاق سراح أمثال هؤلاء الأطفال لأول جريمة كانوا ما كان نوعها وتقديرها ، فإننا اليوم نواجه جيشاً عرمرماً من الأحداث ، ضاقت بهم إصلاحياتنا بل وسجوننا . واننا بهذا نعمل على تكوين وخلق الآلاف من المجرمين الذين هم مبعث اضطراب الأمن العام والطمأنينة بين الناس . وما دمتنا لا نزال نغفل ما عندنا من أبسط وسائل العلاج والإصلاح ، فإننا لا نشك نربى تحت أنوفنا جيش الجريمة والمجرمين .

جرائم الأحداث ،

ثم أنتقل الى جرائم الأحداث وأساليبهم فيها على سبيل الإيضاح فمن جرائمهم :

أولا - السرقة في النشل :

- (١) حوادث نشل المحافظ من الأسواق التجارية ، وخاصة أسواق القطن .
 - (٢) طفل في سن السابعة سرق باكو دخان ، على مرأى من رجل البوليس .
 - (٣) أطفال يتجمعون لسرقة نفود أحد الموازين العامة في ميدان الملكة فريده .
- ثانيا - القتل وإضرار النار :

- (١) غلامان اختلفا على صيد سمكة .
 - (٢) تلميذان اختلفا على قسمة برتقالة .
 - (٣) غلام قتل آخر لمعاكسة شقيقته ، وأخر انتقم لوالده بالعماس .
 - (٤) غلامان صبا البترول على ثالث وأحرقاه .
 - (٥) فتاة أشعلت النار في منزل مخدومها مرار ثلاث ، وأخيرا ضبطت واعترفت بأنها تفعل ذلك حبا منها في رؤية رجال المطافى لا بسين خوذهم النحاس .
- ثالثا - هتك العرض :

- (١) غلام هتك عرض ابنة عمه ، ظنا منه أنه عدل عن زواجه بها .
- (٢) هتك العرض بين جماعات الأحداث من الفتيات والغلمان من جامعي أعقاب اللفائف ، وغير هذا مما لا يتسع المقام لحصره وإيضاحه .

وإني ألاحظ أن حالات القتل في مديريات الوجه القبلي شائعة ، والسرقات والنصب والاحتيال مشتركة فيما بين بلاد الوجه القبلي والبحري ، إلا أنها في مدن الوجه البحري أعم ، وانتشرد قدسرت عدواه ووطنياه بين أطفال جميع المدن الكبرى والمخاضات ، وفي القرى والكفور حتى أصبح تطبيق قانون تشرد الأحداث سنة ١٩٠٨ رقم ٢ ساريا . فعوله في جميع أنحاء البلاد ، بعد أن كان ناصرا على مدينتي القاهرة والاسكندرية وغيرهما من المحافظات .

لغة الأحداث الجرمين :

للأحداث لغة لا تخرج من أنها لغة البلاد، اللغة العربية، إلا أنها رموز واصطلاحات لها معناها عندهم وفي محيطهم، ولتفاهم فيما بينهم، وعلى مسمع منا دون أن نفهم ما يريدون سواء أ في الشارع أو الإصلاحات أو السجنون ، نذكر منها مثلا على سبيل الإيضاح :

المعنى	الكلمة	المعنى	الكلمة
اختفه	خنصره	خب ³	كتم
عسكري سوارى	ديك رومى	ذهب	بطاطس
خفير	خنفه	نيه	بنج
عسكري	كتكوت	نيه جدا	بنج ساعة
اسرق	هيف	اختف في مكالك	تعال يا محمد

المباحث العلمية :

إن أخص ما يفعله المشتغلون منا حين يبحث مشكلة الأحداث الحمل وصغار الجرمين، أن يقرءوا شيئا عن نتائج ما قام به الباحثون، ووضعوا من أجله المؤلفات في مختلف البلدان الغربية، والتي جمعت في طليعة طرائق العلاج والإصلاح (البحث العلمى العملى) ونسبنا لذلك المباحث العلمية، وأعدت لها العدة، وواصلت بحوثها على أساس الفرض الذى من أجله اتجهت العكرة. وليس من المستطاع أن نقرر شيئا نرغب في إصلاحه قبل بحثنا مؤسسا على الأصول الفنية من وجوهه المختلفة، من حيث فحص العوامل والبواعث النفسية والعقلية والصحية، التي دفعت بالحدث إلى الاندماج بالجريمة، وحتى يمكن والحال هذه تقرير العلاج. ولا بد أن يوجد بمصر طبقة من الباحثين الإخصائيين في مختلف البحوث الفنية تكون مهمتهم :

(١) إجراء الابحاث والتجارب .

(٢) جمع المشاهدات .

(٣) عمل الإحصاءات .

(٤) فحص الأحداث لفحصا دقيقا يمكن معه إقرار العلاج عندئذ . وعندئذ فقط يمكن

أن تبنى نظم الإصلاح ومقاومة الجريمة سواء أ كانت بوسائل الوقاية، أم بعهد الإصلاح، التي يجب أن تكون على أسس من نتائج هذه البحوث .

تجربه ناجحة لمكتب الخدمة الاجتماعية :

إن ما يقوم به مكتب الخدمة الاجتماعية ، يعد بحق نواة البحث العلمى . ومن أخص مشروعات الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، منذ يونيه سنة ١٩٤٠ فى محيط الأحداث الذين يقدمون للحاكم أمام محكمة أحداث القاهرة ، وبعد إجراء البحوث الاجتماعية والنفسية والصحية ، يقترح ما يرحى أن يكون عليه مستقبل الحدث وعلاجه ، وأنه يمثل هذه البحوث تقوم دنام الإصلاح والتهديب ، وما يمكن أن نقول إننا نأخذ اليوم بأسباب طرائق العلاج من الوجهة الفنية الصحيحة ، ولو أن هذا البحث يعد فى ذاته خطوة بطيئة فى الاتجاه الصحيح من البحث العلمى ، إلا أننا نرجو لهذا العمل التوفيق والنجاح ، حتى يم بين جميع الأحداث الذين يقدمون للحاكم فى جميع أنحاء البلاد .

دور إصلاحيات الأحداث :

صر على دور الإصلاحيات ؛ منذ نشأتها ١٣٤٦٦ غلاما من هؤلاء ٢٠٠٤ فى أحداث المرج منذ أن نقلت فى مكانها الحالى بالمرج ، وفى مدرسة إصلاح البنين بالجيزة ٨٢٨١ وفى إصلاح البنات ١٤٣٨ وأحداث القاطر ٧٤٣ هذا عدا من سجنوا من الأحداث ، منذ السنوات الفائتة ومن فى السجون حتى اليوم . هؤلاء وحدهم ممن كانوا - ولا يزالون - بدور الإصلاحيات ، ومن كان لى حظ من الإشراف على تعليمهم وتهديبهم ، فى غضون ما يربو على ربع قرن ، فألفيتهم بأئسين ضعيفى العقول وضعيفى النفوس ، مهولى الأجسام لا ذنب لهم إلا ما كان من آثار الزوجية والفقر المدقع ، والبيئة الفاسدة ، والأمراض المزمنة والياس والسامة ، وموت الماطفة فى قلوب قومهم ، وفقدان روح الدين والأخلاق بين أفراد وجماعات الأمة ، كل هذا وغيره من أهم العوامل فى تكوين هذه مخلوقات التى تعبأ منها جيوش الجريمة ، لمباغنة الأمن العام وإحلال الاضطراب محل الطمأنينة والسلام .

نتيجة فحص حالات :

فحصت ٣١٦ حالة ، من هؤلاء الأحداث ، ومن المحكوم عليهم بقانون النشرد سنة ١٩٠٨ ، ولذى أجمل فيما لى أخص الشانج التى توصلت إليها : ١٦٣ غلاما من القاهرة و ١٣٨ من الاسكندرية و ١٢ من بور سعيد و ١٠ من الجيزة .

من هؤلاء ٢٩٩ مسلما ، ١٧ مسيحيا منهم ١٤ قبطيا واثنان من رعايا اليونان وأرمنى واحد ، من هذا الاحصاء ٢٣١ غلاما كانوا «مجانين فى المصانم الأهلية» وقد كانوا مهضه

إمارة "الاسطوانات" من هذه الورش الأهلية، إلى حد التسوية والتمف. أما عن الآثار الزوجية فكالت النتيجة كما يأتي : ١٤٥ حالة طلاق ، ١٠٩ نزاع عائلي ، ٦٢ وفاة الوالد أو الوالدة أو كلاهما ، ٢٥ أرملة ، ٦٤ مطلقة لم تزوج ، ٩١ مطلقة تزوجت .

وليس بلدنا هذا فريدا في انتشار هذا المرض الاجتماعي الخطير ، فهو والبلاد الأجنبية مواسية في الآلية يختلف تشخيص هذه الأمراض في التقدم والانحطاط بما عليه اهتمام الحكومات والجماعات والباحثين وقادة الرأي العام ، أما وقد ظهرت في أفق الحياة المصرية بوادر الأمل والرجاء فيما تجلّى من اهتمام الهيئات العاملة على رفع الحياة الاجتماعية في هذا البلد ، فلا ريب أن خيرا ما تقوم به هو إقامة المنشآت لرعاية وحماية الآلاف من أطفالنا في المدن والقرى وبين الطبقات الفقيرة من الشعب ، وعلى مثال تلك المؤسسات التي أقامتها وترعاها رابطة الإصلاح الاجتماعي ، تكون سبل الوقاية ، ووسائل الإصلاح من الجريمة ، في محيط الأطفال ، إذ من المعلوم أن الوقاية خير من العلاج وإنه مما لا شك فيه أن كل عمل أسسه العقل والعدل والإنسانية، فإنه ناجح لا محالة، وفيه الخير الكثير، وفي هذا فليتنافس المتنافسون .

فتح الله المرصفي

الَّذِي يَجِدُكَ يَتِيمًا فَتَوَّأَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ تَائِبًا
أَبَدْنِي ۖ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۖ

(قرآن كريم)